قبائل البقارة بالسودان: عبقرية المكان

د. محمد عبد المؤمن محمد

تعد قبائل البقارة أهم مجموعات البدو الرحل فى بلاد السودان، وذلك حسب روايات المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين، حيث هاجر أسلافهم إلى تلك المناطق من طرق عدة، وانتهى بهم المقام فى المنطقة المعروفة بحزام البقارة الممتد من كردفان إلى دارفور فى السودان، حيث الخصائص الطبيعية التى جذبت هذه القبائل للإقامة فى تلك المنطقة، وأهمها توفر المياه والعشب، وهو المكان أدى إلى إحداث تغيير فى طبيعة النشاط المعيشى لديهم من رعى الإبل إلى رعى الأبقار. وسوف تتناول الدراسة النقاط التالية:

أولا – البقارة وأماكن معيشتهم.

ثانيا – دخول أسلاف البقارة إلى السودان.

ثالثا – ظهور ثقافة البقارة.

رابعا – أهم قبائل البقارة فى السودان.

خامسا – ملامح من عادات وأنشطة البقارة.

أولا - البقارة وأماكن معيشتهم:

قبائل البقارة هى مجموعة من القبائل العربية، ومصطلح البقارة يعكس مظهرا أساسيا للنمط الاجتماعى الاقتصادى لهذه القبائل وهو امتلاك الماشية بواسطة رعاة شبه بدو، وهم يسكنون المنطقة المعروفة باسم «حزام البقارة»، وهى المنطقة التى تمتد خلال مساحة حوالى ٢٥٠٠ كم^{٢} فيما بين خطى عرض ١٠°و١٣° شمال خط الاستواء، وتمتد من النيل الأبيض شرقاً إلى بحيرة تشاد غربا[1]، مغطيا بذلك مناطق تدخل فى نطاق عدة دول حديثة تشمل السودان، إفريقيا الوسطى، الكاميرون، ونيجيريا. وتشمل قبائل سليم، الحوازمة، أولاد حميد، المسيرية، الرزيقات، بنى هلبة، الهبانية، التعايشة فى السودان، أولاد

(1) Cunnison, I., Classification by Genealogy, A problem of the Baggara belt, in Yusuf Fadl Hassan, (ed.), Sudan in Africa , Khartoum , 1985 ,P.186.

راشـد والسلامات فى تشاد، والشـوا فى نيجيريا وقطاع من الكاميرون. ويشكل الشوا فى حوض بحيرة تشاد الجزء الغربى الأقصى من البقارة، غير أن اسم البقارة معروف فقط فى السودان، أما فى تشاد فيعرفون باسم العرب، وفى نيجيريا بالشوا.

والبقارة فى السودان وطبقا لهذا التعريف يتركزون فى جنوب إقليمى كردفان ودارفور، أما منطقة جنوب كردفان فتقع فى منطقة السـافانا الغربية للسودان والتى تقع بدورها فى مناطق الحزام الساحلى المدارى للنصف الشمالى وبين خطى طول ٢٩ – ٣٢ شرقا، باستثناء الجزء الشـمالى الذى تسوده خصائص الصحراء والسـافانا الفقيرة، وينقسم جنوب كردفان إلى نطاقـين الأول: نطاق جبـال النوبا، وهو يتكون من صخـور مركبة خاصة من أحجار الجرانيـت ويمتد طوله إلى أكثر من مائة ميـل ويبلغ ارتفاع بعض الجبال نحو ٢٥٠٠ قدم فوق سـطح البحر، وهى أرض طينية تتخللها سلسلة عنقودية تتكون من ٩٩ جبلا وتشكل قمة جبل مندى بالقرب من مدينة رشاد أعلاها بطول يبلغ ٤٧٩٠ قدم، ومناخ هذه المنطقة هو مناخ السافانا الممطر صيفا. أما نطاق المنطقة الغربية فيقع معظمه بما يعرف بإقليم القوز والتى يوجد بها بعض التلال الصغيرة والتى تعرف محليا باسـم الدبكايات، ويفصل بين القـوز وجبـال النوبة خور أبو حبل[١]، أما الجزء الجنوبى مـن المنطقة الغربية فيتميز بأن أرضه تتكون من تربة سوداء تبدأ من منتصف جبال النوبة[٢].

أمـا المنطقـة الواقعة بين كردفـان ودارفور فهى امتداد لأرض القـوز وهى تكون بمثابة الحاجز بينهما، وهى عبارة عن أراضى تكسوها الكثبان الرملية تختلف فى الشكل والحجم، وتغطـى المنطقة من دائرة عرض ١٩°شمال كردفان ودارفور حتى الدائرة ٣٠´٩° فى جنوب دارفور[٣]. ويقسـمها فى إقليم دارفور المحور المركزى لجبل مرّة. وتربة أرض القوز ليسـت

(١) ابن عمر عمر عبيد الله، لمحات من انتشـار الإسـلام فى جنوب كردفان بالسـودان، معهد مبارك قسـم الله للبحوث والتدريب، http: //www. mubarak – inst. org/ all_res. php, Michael, B. J., Cows, Bulls, and Gender roles pastoral Strategies for Survival and continuity in western Sudan, D. Ph. Thesis, Faculty of Graduate School of University of Kansas 1987, p.40.

(2) Lloyd, W., Kordofan, in: Bulletin of American Geographical Society, Vol. 42, No. (1910), p. 522.

(٣) Parry, D. E., Wickens, G. E., The Qozes of southern Darfur Sudan Republic, in: The Geographical Journal, Vol. 147, No. 3, Nov. 1981, p. 308.؛ عوض عبد الهادى، تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ١٨٨١م – ١٨٩٩م، الطبعة الأولى، الخرطوم د. ت، ص ١٢.

خصبة، ويسـقط عليها من الأمطار السـنوية ما بين ٣٠٠ – ٥٥٠ ملليمتر، والإقليم مغطى بالأعشاب والأشجار الصغيرة المتفرقة التى تزداد كثافتها كلما اتجهنا جنوبا، ولدى الأهالى العديد من الوسـائل لتخزين المياه، ومنها حفر البرك الاصطناعية، كما تسـتخدم أشـجار التبلدى، والتى يتفاوت قطرها مابين عشرة وخمسة وعشرين قدما فى تخزين المياه، حيث يتـم تجويفهـا اصطناعيا وذلك بحفر حفرة مربعة فى جذعها تبلغ مسـاحته حوالى ثمانى عشـرة بوصة، وتتجمع بركة صغيرة حول قاعدة الجذع التى تمسـك بمياه الأمطار خلال العاصفة، ويتم صب مياه البركة داخل الجذع بواسطة دلو من الجلد، وتبقى المياه التى يتم تخزينها بهذه الطريقة صالحة للشرب حتى نهاية موسم الجفاف[١].

أما إقليم جنوب دارفور فهو يتكون من سـهول طينية، وهى تمتد ما بين دائرتى عرض ٩° – ١٢° شمالاً، وهذه المنطقة عبارة عن سهول طينية مغطاة فى معظم الأجزاء بالشجيرات الكثيفة، وتسـقط عليها الأمطار الغزيرة والتى تتراوح ما بين ٥٥٠ – ٨٠٠ ملليمتر سـنويا[٢] وإلى الجنـوب يوجد حاجز طبيعى، ألا وهو بحر العرب الذى يخرج من دارفور ويصب فى بحر الغزال، وتقع فى جنوبه منطقة واسعة ينتشر فيها البعوض والذباب تسى تسى[٣].

وينتشـر فى جنوب دارفور غطاء نباتى متنوع فهناك الأشـجار المثمرة وغير المثمرة، أما المثمرة فمنها النخيل والليمون والموز والهجليج والنبق والتبلدى، وهناك أيضا شجر الدليب (جوز الهند) والدوم، أما الأشـجار غير المثمرة فكثيرة جدا ومنها العشـر والحشـاب الذى يؤخذ منه الصمغ العربى، وأيضا شجر السنط والحراز، وهى تستخدم فى بناء البيوت التى تبنى من قصب الدخن أو قصب رفيع يسمى المرهبيب[٤].

والبقارة سمر البشرة يمتازون برشاقة الجسم، ولهم ملامح واضحة وشعر قليل فى الوجه، ولحى خفيفة وشـارب يحسنون الاعتناء به[٥]، وقد اكتسـب أفراد القبائل العربية البقارة

(١) وسـام أحمد طه منصور، نظام الإدارة فى دارفور (١٩١٦م – ١٩٣٦م)، رسـالة دكتوراه غير منشـورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ٢٠٠٩م، ص ٦.

(2) Cunnison, I., Op. Cit., PP. 101 – 110.

(٣) نفسه، ص٢٠.

(٤) رجب محمد عبد الحليم، العروبة والإسلام فى دارفور فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٣، ٢٤.

(5) MacMichael, H.A., The Tribes of Northern and Central Kordofan, Cambridge, 1912, PP. 38 – 39.

بعــض الصفات الزنجية لاتخاذهم زوجــات وإماء من القبائل الزنجية. حيث يجاورهم من الجنوب القبائل النيلية كالدينكا والشــيلوك، ومن الشمال الزغاوة والفور والبرتى والداجو. بينما تسكن جبال النوبة مجموعة من القبائل النوبية[١].

والبقــارة من أبرز قبائل الســودان فى الصفــات الحربية، وهم صيــادون مهرة، وتلك الســمات الحربية هى التى ســاعدتهم على تأسيس أوطانهم فى بلاد جديدة، ومكنتهم من الدفاع عنها حتى وصلوا إلى حوض بحر الغزال[٢].

كما أن تلك النزعة العســكرية هى التى يســرت لهم التوســع، وترتب عليها صدام شديد خاصة فى دارفور مع ســلاطين الفور. فحياة البقارة تجعل أمر الصدام لا مفر منه، لأنهم فى فصل الجفاف ينزحون بماشــيتهم نحو الجنوب طلبــا للمرعى من جهات بحر العرب، وفى الخريف يذهبون نحو الشمال هربا بقطعانهم من الذباب والمستنقعات المنتشرة فى الجنوب[٣]، إلى الأرض التى يرى ســلاطين الفور إنها ملك لهم، ولــذا فلابد للبقارة أن يدفعوا ضريبة عن إقامتهم فى تلك الجهات، ومن البديهى أن البقارة لم يكونوا راغبين فى دفع تلك الضرائب، ولــذا لم يؤدوهــا إلا تحت ضغط لا قبل لهم بمقاومته، فكان التصــادم لا مفر منه بين البقارة وسلاطين الفور، كما كان البقارة يحاولون التهرب ويفضلون الابتعاد نحو الشرق أو الغرب كما حدث للرزيقات والهبانية وبنى هلبة فى زمن السلطان تيراب (١٧٥٢م – ١٧٨٧م) والسلطان على دينار (١٨٩٨م – ١٩١٦م)، واتساع حزام البقارة شرقا وغربا أفسح المجال لهم للحركة والترحــال، ممــا جعلهم لا يلتزمون بحدود، ولم تكن تلك الحركة تشــمل قبيلة بأســرها بل أحيانا كانت مقصورة على بطن من البطون، هذا ما جعل القبائل تتداخل مع بعضها[٤].

فى حين لم تحظ كردفان مثل دارفور بإنشــاء ممالك مســتقلة، بل ظلت منذ أخريات القرن الســابع عشــر وخلال القرن الثامن عشر تســعى تحت زعامة المسبعات لتحقيق تلك الغاية، وشــهدت صراعات بين كل من مملكتى الفونج والفور للسيطرة عليها، غير أن أى منهما لم يتمكن من تحقيق ذلك[٥].

---

(١) آدم جمــال أحمد، قراءة حــول تناقضات مواقف أبناء جبال النوب، جريدة ســودانايل الإلكترونية، عدد ٢٤ يناير ٢٠٠٤.

(٢) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ١٨.

(٣) عبد السلام نور الدين، النهر والظعينة، جريدة سودانايل الإلكترونية، عدد ٩ مارس ٢٠٠٩.

(٤) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ١٩.

(٥) يوسف فضل حسن، مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠ – ١٨٢١م، ص ١١٧.

ثانيا - دخول أسلاف البقارة إلى السودان:

جاءت هجرات القبائل العربية إلى السودان فى عصور متباينة وفى شكل مجموعات كبيرة وعلى دفعات وفى موجة أثر موجة، وعبر قرون عديدة وفى شكل تسرب سلمى هادئ فلم يحدث أن واجهوا مقاومة من سكان تلك المناطق التى وصلوا إليها[1]. ومن المعروف أن العلاقة بين الجزيرة العربية وبلاد السودان ترجع إلى أماد بعيدة قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم، ذلك أن البحر الأحمر لم يكن فى وقت من الأوقات حاجزا يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية وشواطئه الإفريقية، إذ لا يزيد اتساع البحر الأحمر على المائة وعشرين ميلاً عند السودان، كما أنه يضيق فى الجنوب عند باب المندب حتى لا يزيد على عشرة أميال. وعلى الرغم من أن العديد من العناصر العربية دخلت إلى مصر والسودان فى فترات سحيقة قبل الإسلام، فإن الهجرات المؤثرة والتى كانت فى مجموعات كبيرة هى تلك الهجرات التى حدثت نتيجة للتجمع الضخم للقبائل العربية فى مصر بعد الفتح الإسلامى. ومما لا شك فيه أن الهجرات العربية التى توافدت على السودان لم تتم كلها فى وقت واحد، ولم تحركها ظروف واحدة، وأنها تمت على فترات متقطعة تنشط حينا وتخمد حينا آخر، وتتحكم فيها عدة عوامل دينية وسياسية وتجارية واقتصادية[2].

غير أن الطرق التى دخل بواسطتها أسلاف البقارة للسودان كانت دائما مثار جدل واختلاف سواء بين المؤرخين أو بين روايات البقارة أنفسهم. فيروى أبناء قبيلة الرزيقات أنهم قبيلة عربية نزحت من الجزيرة إلى مصر وشمال إفريقيا مرورا بتونس وليبيا ثم استقرت فى شمال دارفور فى منطقة وادای بتشاد بعد قدومها من ليبيا. أما قبيلة التعايشة فتتفق رواياتهم على دخول أجدادهم من جهة شمال دارفور إلا إنها اختلفت فى من أين دخولهم، فالبعض يروى أنهم دخلوا من مصر بينما يروى البعض الآخر أنهم دخلوا إليها من ليبيا.

وعلى الرغم من ذلك فإن روايات البقارة تتفق فى معظمها مع نظرية كينسون Cunnison عن أصل البقارة وهى النظرية التى تفيد بأن البقارة وفدوا من الأجزاء الجنوبية للشمال الإفريقى الغربى وأنهم ظعنوا فى الصحراء الكبرى، وأن تفسير حركتهم المتجهة شرقا

---

(1) Theobold, A. B., Ali Dinar: Last Sultan of Darfur, 1898 – 1916, London 1965, p. 121.

(٢) ربيع محمد القمر الحاج، الهجرات العربية إلى بلاد النوبة والسودان الشرقى... وآثارها الثقافية والحضارية، معهد مبارك قسم الله للبحوث والتدريب، http: //www. mubarak – inst. org/ all_res. php

هى طبيعتهم النافرة من كل سـيطرة وخضوع لأى من الممالك المنتشـرة غرب النيل الأبيض كالبرنـو ووادى، فهم لا يطيقون البعد عنها لحاجتهم لأسـواقها، ولا يطيقون سـيطرتها عليهـم. والوضع الأمثل لهم أن يكونوا حولها فى وقت ضعفها وتفككها ثم يرحلون شـرقا عندما تقوى شـوكتها. وهذا ما حدث عند اسـتيطانهم حول سـلطنة البرنو أولا ثم رحلوا عنها شرقا إلى سلطنة وادى، ثم واصلوا السير شرقا مرة أخرى إلى دارفور، فتمددت ديارهم حتى النيل الأبيض[1] والخلل فى هذه النظرية هى أن كينسـون جعل العامل السياسـى هو المحرك الرئيسـى لترحال البقارة، متجاهلا دور البيئـة من جفاف أو تصحر، فهناك من الأدلة ما يشـير إلى زحف الجفـاف والتصحر، فابتلعت الصحـراء المراعى الخصبة حول بحيرة تشاد، مما دفع البقارة للنزوح إلى دارفور[2].

وهنـاك رأى آخـر افترضه ماكمايكل لوصول تلك القبائل العربية إلى ديارهم فى جنوبى كردفـان ودارفور، وهو طريق نهر النيل، فقد اقـترح ماكمايكل أن أغلب المهاجرين الذين اعتبرهـم من قبائل جهينة قد نزحوا إلى السـودان عبر هذا الطريـق، وذلك بدءًا من القرن الرابـع عشـر الميلادى حيث تجمعـت بطون جهينة فى مصر واتجهـت جنوبا إلى النوبة ومنها انحدرت بعض بطونها متجهة إلى الغرب منتشرة فى منطقة حزام البقارة إلى سلطنة البرنو[3]، فقد مكنت الاتفاقات التى عُقدت بين البجة والعرب من وجود العرب فى منطقة وادى العلاقى لاسـتغلال معدن الذهب، وذلك بعد حدوث التدهور الخطير لأوضاع العرب فى مصر فى العصر العباسـى، خاصة بعد قرار الخليفة المعتصم بإسـقاطهم من الديوان وهو مـا كان يعنـى قطع العطاء عنهم، واسـتغناء الدولة عنهم كمقاتلين، واسـتبدالهم بالجند التركى، وكان هذا هو العامل الأساسـى الذى شـجع العرب على الهجرة إلى السـودان[4]. خاصة مع اسـتمرار تدهور أوضاع العرب فى عصر الفاطميين فى مصر حيث أجبر جانب كبير من قبائل جهينة على الاتجاه جنوبا فاستقروا حول أسيوط[5].

---

(1) Cunnison, I., Baggara Arabs, Oxford, 1966, PP. 11 – 19.

(٢) عادل أحمد عبد الرحمن، قبائل البقارة فى غرب السـودان، بحث فى أصولهم وأنسـابهم وثقافتهم، مسـقط، ٢٠٠٦م، ص ٥٢.

(٣) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ١٦.

(٤) يوسف فضل حسن، دراسات فى تاريخ السودان، الجزء الأول، الخرطوم ١٩٧٥م، ص ١٨٥.

(5) Michael, B. J., Op. Cit., p. 6.

وبإغلاق مناجم الذهب والزمرد لقلة العائد منها فى الصحراء الشـرقية، وتحول قوافل الحجيج من الصحراء الشـرقية إلى طريق سيناء بعد التخلص من الخطر الصليبى، تقلصت أهمية ميناء عيذاب، فقد فضل المماليك ميناء جدة، ففقدت بلاد البجة والصحراء الشرقية مقوماتها الاقتصادية التى جذبت إليها العرب. وفى ظل تردى أوضاع العرب فى ظل الحكم المملوكى نتيجة لمخاوف سـلاطين المماليك من خطر العرب، نتج عن ذلك تدفق المهاجرين العرب فى أعداد كبيرة نحو مملكة المقرة المسيحية فسقطت، وسارت تلك القبائل بمحاذاة نهر النيل حتى دنقلا، بينما شـقت مجموعة أخـرى طريقها إلى بلاد البجة حيث التقت بالمجموعـات التى سـبقتها فاندفعت كلتاهما إلى المنطقة الوسـطى وعبر المهاجرون الذين وصلـوا إلى نهر النيل إلى سـهول كردفـان ودارفور، حيث التقوا بموجـة أخرى كانت قد ترسمت طريق درب الأربعين الذى يصل أسيوط فى صعيد مصر وكوبى الواقعة شمال غرب الفاشـر مارا بواحتى الخارجة وسـليمة، وهو طريق آمن نظرا لقلة البشر الموجودين به على عكـس طريـق دنقلا أو طريق صحراء العتمور[1]. أو أنهم التزمـوا الضفة الغربية لنهر النيل ووصلوا إلى بلاد الكانم ومنها كانت تحركاتهم إلى حزام البقارة[2].

ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الألمانى بارث Barth عن قبائل البقارة من أنهم يعيشون فى برنو وباجرمى وحول بحيرة تشـاد وأنهم نزحوا من الشـرق، وأن لهجتهم بعيدة كل البعد عن لهجة المغاربة وتحتفظ من وجوه عديدة بفصاحة وسـلامة لغة أهل الحجاز. كما أنهم أتوا ببعض العادات الشائعة من شبه الجزيرة كالدية، ومن السودان كالختان الفرعونى[3]، وهـو مـا يُجمع عليه عرب بلاد البرنو من أنهم انحدروا من منطقة النيلين الأبيض والأزرق وكردفان[4]. كما أن تاريخ البرنو يخلو من أية إشارات إلى هجرات عربية جاءت من الشمال الغربـى، وأن المعـروف أن ملوك البرنو اسـتصرخوا بالمماليك ليحولـوا دون تدفق القبائل العربية من الشـرق، كما أن عرب بلاد البرنو يجمعون بصورة قاطعة لا تدع مجالا للشـك على أنهم انحدروا من منطقة النيل الأزرق والأبيض وكردفان[5].

(١) يوسف فضل حسن، مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠ – ١٨٢١م، ص ١٠٣.

(٢) رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص ٤٣ – ٨٧.

(٣) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) عادل عبد الرحمن محمود، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٥) يوسف فضل حسن، مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠ – ١٨٢١م، ص ٥٦.

ومما سبق نخلص إلى أن أسلاف البقارة قد يكونوا شقوا الطريقين فى رحلتهم لموطنهم الحالى، أى إن مجموعات من القبائل العربية من جهينة وجذام ولخم قد دخلت ضمن هجرة جهينة الكبرى عبر النيل غربا إلى مناطق كردفان، ومنها تحرك جزء كبير من البقارة إلى داخل دارفور ووادى فى أواسط القرن السادس عشر[1]. وانتشروا حتى البرنو وكانت تلك هى المجموعة الأكبر والتى التقت فى تلك الديار بالمجموعات القادمة من شمال إفريقيا العربى فتم الانصهار والتحول التدريجى إلى رعى الأبقار وتشكيل ما يسمى بـ «ثقافة البقارة» بكل ما صاحبها من ظروف بيئية وسياسية، ثم عادت هذه المجموعات شرقا، تحت تأثير تلك الظروف إلى ديار البقارة الحالية.

ثالثاً - ظهور ثقافة البقارة:

وجدت القبائل العربية فى سهول كردفان ودارفور الشمالية ما يشبع رغبتها فى ممارسة رعى الإبل التى ألفت عليها، حيث المراعى الخصبة وحرية الحركة، فلم يكن هناك أى مبرر لتغيير طبيعة نشاطهم المعيشى أو استبدال الإبل بأى حيوان آخر كالأبقار. ومن ثم فإن ظهور ما سمى بثقافة البقارة حددته عدة ظروف سياسية وبيئية، وهناك العديد من الروايات الشفهية التى توضح معالم هذا التحول ومنها الحكاية الشعبية المعروفة بـ «شقة الناقة» والتى تداولت بين البقارة من السودان إلى وادى فى تشاد إلى عرب الشوا فى نيجيريا، ففى السودان نجدها لدى قبيلة التعايشة ولدى قبيلة الرزيقات وغيرها، وإن كانت هذه الرواية تختلف فى التفاصيل من قبيلة إلى أخرى فإن موضوعها واحد يقوم على قيام الحرب بين القبائل العربية التى انقسمت إلى فريقين بسبب ناقة فقدها صاحبها، ووجدها أحد العرب من قبيلة أخرى فاستولى عليها ورفض إعادتها إلى صاحبها الذى أعياه البحث عنها، وهو ما دفعه لاستنفار عشيرته لنصرته، الذين سعوا بدورهم لاستعادتها بطريقة سلمية ولما فشلوا فى مسعاهم، نشبت الحرب التى انتهت بهزيمة أحد الفريقين، فقررت القبائل المهزومة التحرك جنوبا[2].

(1) Thomas, F. C., The Juhaina Arabs of Chad, in: Middle East Journal, Vol. 13, No. 2 (Spring 1959), p. 144.

(٢) عادل عبد الرحمن محمود، المرجع السابق، ص ٦٠.

وتواتــر هــذه الرواية مع اختلافها فــى التفاصيل يرجح حدوثها بصــورة ما، وأن هذه الأحداث شملت عدة قبائل وأدت إلى انقسامها إلى معسكرين متحاربين، هاجرت المجموعة المنهزمة منهما إلى مناطق أخرى غير تلك المناطق التى عاشت فيها.

ويربــط بعــض المؤرخين بين هذه الحكاية وبين الحــرب الأهلية التى وقعت فى واداى عام ١٦٣٥م، وذلك عندما قام عبد الكريم جامع بإســقاط ملك التنجر، حيث قامت قبائل جهينة التى تواجدت منذ الأيام الأولى لهجرة العرب لمناطق الســاحل وتركزت فى مناطق واداى بالانقســام إلى مجموعتين الأولى ناصرت عبد الكريم وهم المحاميد والماهرية والنوابية (الرزيقات)، الثانية المسيرية، أولاد راشد، وخزام والتى بقيت على ولائها للتنجر، وخسر الطرف الثانى المعركة مع حلفائهم فانسحبوا من مناطقهم[1].

ويمكن أن نســتنتج من ذلك أن القبائل المنهزمة اضطرت إلى ترك ديارها الســابقة فى مناطق الساحل الشمالية فى واداى، حيث ظلت تحتفظ بتربية الإبل منذ قدومها إلى مناطق الســافانا جنوبا حيث تحولت إلى تربية الماشــية نتيجة للظروف البيئية الجديدة، ومن ثم ولعدة عوامل تحركت القبائل أيضا فى رحلة العودة شرقا للسودان لموقعهم الحالى[2].

إلا أن هــذا الفرض لا يكفى لتفســير الوضع الحالى للبقــارة، إذ يوجد جانب من قبيلة الرزيقات وهى ضمن القبائل الموالية لعبد الكريم جامع تقوم برعى الإبل بينما الجانب الآخر فى الجنوب يقوم برعى الأبقار، وهذا يرجع إلى عدة ظروف قد اســتجدت، منها الشــعور بخصب مناطق السافانا وغناها أو الجفاف والتصحر فى المناطق الشمالية، أدت فى النهاية لتحول جزء من الأبالة الموالين للجامعى إلى بقارة.

أما عن التحول إلى رعى الأبقار، فنتج عن مواجهة القبائل التى تحركت جنوبا لظروف بيئية مختلفة، وقد ســجلت الروايات الشــفهية ذلك التحدى الذى قابل أسلاف البقارة، وعــبروا عن ذلك بقولهم «هلــك كثير من الناس وبقى الأقوياء منهم». وهو يوضح أن العرب فقــدوا الكثير منهم إبلهم إما للهزيمة العســكرية أو نتيجة للظروف غير الملائمة، ولم تكن أســراب الضأن والماعز التى بقيت لديهم كافية لتأمين احتياجاتهم المعيشــية، وأمام ذلك الوضع كان لابد أن تحدث تغييرات فى طرق وأساليب حياتهم حتى يواكبوا بيئة السافانا

(١) نفسه، ص ٦٢.

(٢) نفسه، ص ٦٣.

الجديـــدة الغنية بالطرائد والصيد والنباتات. حيث ظهرت نشـــاطات الإغارة على ســـكان الســـافانا من المزارعين بواســـطة محاربى البقارة[١]. واعتمد البقارة على قنص العبيد وصيد الأبقار من القبائل الإفريقية جنوب بحر الغزال[٢]. وســـاعد على ذلك أن البقارة وصلوا إلى أقصى جنوب كردفان فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى الوقت الذى وصلت فيه أحد فروع قبائل الدينكا وهم الدينكا نقوق[٣]. فاســـتولى البقارة على أعداد كبيرة من الأبقار من قبائل الدينكا والنوير جنوب السودان نظرا لقدرتهم الفائقة على استخدام الخيل، وهو ما كان أمرا غريبا على أهل الجنوب[٤]. واستخدم البقارة غنائمهم من مواد ثمينة مثل العاج والعبيد فى بيعها للتجار فى مقابل الســـلاح الأوربى، وهو عضد من كفاءتهم العســـكرية، كمـــا مارس العرب كذلك حرفة جمع النباتات الصالحة للغذاء، وقد ســـاعدتهم تلك الأمور على التغلب مرحليا على النقص فى مصادرهم الاقتصادية فى المرحلة الأولى، حتى استغنوا تماما عن تربية الإبل[٥].

ونتيجـــة لعدم قـــدرة الإبل على التكيف مع البيئة الجديدة، بـــدأت القبائل العربية التى ســـكنت تلك المناطق فى اختيار حيوان بديل لها، وكانت الأبقار هى الأنســـب وقد تأثروا فى ذلك بالسكان المحليين من العناصر الأفريقية فى البيئة الجديدة من حولهم، واقتبســـوا منهم الكثير. أما المجموعة الإفريقية التى نقلت عنها أسلاف البقارة أساليب رعـــى الأبقـــار فهى غير واضحـــة، إذ إن المزارعين الأفارقة فى منطقة الســـافانا الجافة يفتقرون لمعرفة تربية الماشـــية، وفى المنطقة الرطبة من غابات الســـافانا تجعل الظروف غير ملائمة لتربية الأبقار نظرا لتواجد مرض الترابنزوما الذى ينتقل بواسطة ذبابة التسى تســـى. حيث تربى بعض أنواع من الأبقار عديمة الســـنام التى لديها مقاومة عالية ضد

(١) نقلت جريدة نيويورك تايمز صورة سيئة لكراهية السودانيين من أصول إفريقية للعرب البقارة أثناء الثورة المهدية ووصفتهم بالأشباح السوداء الذين يقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال لبيعهم كرقيق ويحرقون المنازل.
New York Times, Sep. 3, 1896, p. 19.

(2) Beswick, S., F., Violence, Ethnicity and political consolidation in south Sudan: A History of the Dinka and their Relations with their neighbors, Volume 1, D.Ph, Michigan State University 1998, p.141.

(3) Ibid., pp. 139 – 140.

(4) Ibid., pp. 142 – 143.

(٥) عادل عبد الرحمن محمود، المرجع السابق، ص ٧٠.

المــرض ولكنها لا ترتبط بنوعية الأبقار الخاصــة بالبقارة والذين عرف عنهم منذ البداية تربية الأبقار ذات القرون القصيرة[1].

وتوجد العديد من المؤشــرات التى تثبت أن المجموعة التى اقتبس منها أسلاف البقارة وســائل تربية الماشية هى فى أغلب الاحتمالات قبائل الفلاتة الرعوية التى وصلت دارفور خلال البرنو ووادای فى القرن الســابع عشــر، وذلك اســتنادا إلى احــتراف المجموعتين الرعى، والملامح القوقازية المشــتركة لديهما، وكذلك الخلفية الثقافية الإسلامية. كما يذكر فى التراث الشفوى لدى قبيلة الحوازمة فى كردفان أن أسلافهم استلموا أول ثور وبقرة من حاج من الفلاتة[2].

أمــا حركة البقارة الدائبة من ديارهم إلى الشــمال ثــم إلى الجنوب وبالعكس، فيرجع لأن ديارهم مكونة من سلاســل تلال رملية متناثرة هنا وهناك بأحواض ذات أرضية مغطاة بطمى صلب، والرعى فى ديارهم أفضل من الأرض الطينية أو القوز اللتين تقعان إلى الشــمال إذ إن تلك الأعشــاب توفر الملح الذى تحتاجه حيواناتهم، كما أنها جيدة كعلف جاف. ولكن مع مجىء فصل الجفاف تتحرك قبائل البقارة جنوبا متجهين إلى بحر العرب أو فى إقليم أرض الحديد الواقعة خلفه بحثا عن مصادر المياه السطحية المتوفرة فى تلك المناطق، ثم مع بداية فصل المطر يعودون إلى ديارهم بسرعة، ومع نمو العشب وتوفير المياه فى البرك تتحسن صحة الحيوانات ويتم الاحتفاظ بالماشية هناك إلى أن يجبرهم تكاثر الذباب والحشرات الناتجة من المياه الراكدة على التحرك شمالا للرعى فى أرض القوز والأيام التى تمضيها البقارة فى الشمال صعبة لأن الأعشاب الموجودة لا توفر علفا جيدا للماشية، ويصبح الحصول على المرعى والمياه صعبا كما تصبح ســقاية الماشــية مرة كل يومين، ويأخذ فريق البقارة الشكل البيضاوى ويتم الاحتفاظ بالماشــية فى الوســط وتحاط بالزريبة لحمايتها من الحيوانات المفترسة، أما خلال الفــترة التــى يمضوها فى الديــار يقومون بزراعة الحبوب على قمم التلال فى رعاية النســاء العجائز عندما يذهب الرجال مع حيواناتهم شمالا، وعند انتهاء موسم الأمطار تعاد القطعان إلى الديار، وتشرب من المياه الموجودة فى البرك وترعى العشب الجيد المتوفر، وعندما تجف البرك ينتهى الرعى حول الديار وتبدأ رحلة عجلى نحو المرعى الشتوى وهكذا، وتوجد هذه

(١) نفسه، ص ٧٢.

(2) MacMichael, H. A., Op. Cit., p. 274.

المراعى بالنسبة لمعظم القبائل فى الحزام الواقع شمال بحر العرب، ولكن هناك اختلافات بين قبائل البقارة فقبيلة الرزيقات يذهبون إلى ما وراء النهر إلى بحر الغزال حتى يصلوا إلى منطقة ذبابة تسى تسى، أما بنو هلبة فيمضون الشتاء على طول الوديان الغربية لدرافور خاصة واداى أزوم، بينما يعبر التعايشة الحدود إلى داخل إقليم سيلا[1].

رابعا - أهم قبائل البقارة فى السودان:

تتفاوت قبائل البقارة فى السودان من حيث عدد أفرادها، أو من حيث ما يمتلكونه من الماشية، خاصة وأن رعى الماشية هو النشاط الاقتصادى الرئيسى لديهم، وتتوزع هذه القبائل فى جنوبى إقليمى كردفان ودارفور، وأهم هذه القبائل

بنو سليم وأولاد حميد: يقطنون المنطقة بين النيل الأبيض وجبال النوبة.

أولاد حميد: ويقنطون المنطقة الشرقية لجنوب كردفان وأهم مناطقهم أبو جبيهة وأبو نواره، أما بنو سليم فينتشرون على ضفاف نهر النيل الأبيض فى المنطقة الجنوبية[2].

قبيلة الحوازمة: وهى قبيلة كبيرة تقطن المنطقة الشمالية لجنوب كردفان، ومن أهم مناطقهم الدبيبات والحمادى[3]. وهى قبيلة كبيرة لديها أعداد كبيرة من الأبقار والأغنام والخيل، وتمتلك كذلك مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية حيث ينتجون جانبا من احتياجاتهم الزراعية من الحبوب ويستكملون الباقى من النوبيين عن طريق الشراء[4].

ومع مطلع القرن التاسع عشر بدأت قبيلة الحوازمة تتحرك جنوبا جنوب جبال النوبة فى كردفان بحثا عن الماء والعشب، وكان الحوازمة قد سيطروا على جزء من هذه الجبال، وخلال وجودهم فى مناطق جبال النوبة عقدوا تحالفات مع زعماء النوبة أو فرقوا بينهم عن طريق خلق النزاعات الداخلية بينهم[5]. وقد ساهمت العلاقات التجارية بين النوبيين

---

(1) Http: //www. sudaneseonline. com/ cgi – bin/ 2bb. cgi.

(٢) سليمان عبد الرسول، أصول قبيلة جهينة السودانية، مجلة الغرة الإلكترونية (السودانية)، العدد الخامس عاشر. www. alghrah. com/ 015/ istitla 3. htm

(٣) نفسه.

(4) Llotd, W., Notes on Kordofan Province, in: The Geographical Journal, Vol. 34, No., 3 (Mar. 1910) p. 260 – 261.

(5) Michael, B. J., Op. Cit., p. 10.

والحوازمــة فى توطيــد العلاقات بينهــم، فتزاوجوا منهم، وقامت قبائــل البقارة بحماية النوبيين من قبائل البقارة الأخرى، فى مقابل الحصول على إمدادات الحبوب والعبيد وهو ما أوجد منافسات بين قبائل البقارة نفسها[١].

ومع تصاعد الحركة المهدية اســتجابت الحوازمة لدعوة المهدى فى كردفان[٢]. فشــارك الحوازمة فى الاســتيلاء على الأبيض، ولكن عندما طلب منهم الخليفة عبد الله التعايشــى الهجرة إلى أم درمان لجأ عدد كبير منهم إلى جبال النوبة وبقوا هناك حتى تم ســقوط دولة المهديــة على يد القــوات المصرية البريطانية، وخلال تلك الفــترة تزايد اختلاطهم بالنوبة بدرجة كبيرة[٣].

وكانت الحوازمة تحت نظارة واحدة ولكنها قســمت فى عهد الحكم الثنائى إلى ثلاث نظــارات: نظــارة الحوازمة أولاد عبد العال وهم الحوازمــة الأصليين المنحدرين من جدهم عطية، وفروعهم دار جواد، أولاد غبوش، دار بيتى، دار النعيلى، ورئاستها فى الحمادى شمال الدلنج وجنوب الأبيض. نظارة الحوازمة الحلفا أى الحلفاء الذين تحالفوا وانصهروا، وليــس من بينهم قبيلة واحدة من الحوازمة وفروعهم دار على، دار فايد، دار أولاد غنى، الجوامعة، والهوارة، وانضوت هذه القبائل تحت قيادة الحوازمة وحمايتها خلال منتصف القرن الثامن عشر بعد أن فشلت فى مواجهة الفونج، وتقع رئاستهم فى أم برنيطة[٤].

والقسم الثالث الرواقة ومقرها كادقلى ويكونون جزءا من قبائل بنى سليم وكنانة الذين انضمــوا إلى الحوزامــة فى الماضى، ويقول عنهم ماكمايكل أنهــم أكثر الحوازمة اختلاطا بأهل النوبة[٥].

---

(1) Suliman, M., The Nuba Mountains of Sudan: Resource access violent Conflict, and Identity, Sudan Tribune, Sep. 2, 2003.

(٢) محمد سعيد القدال، الإمام المهدى محمد أحمد بن عبد الله ١٨٤٤م – ١٨٨٥م، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٢٢م، ص ١٢١، ١٢٢.

(3) MacMichael, H. A., Op. Cit., p. 152.

(٤) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق ٣٠.

(5) Michael, B. J., Cows, Bulls, and Gender roles pastoral Strategies for Survival and continuity in western Sudan, D. Ph. Thesis, Faculty of Graduate School of University of Kansas 1987, p. 9.

المسيرية: وهم ينتشرون فى كردفان ودارفور، وكانوا من القبائل ذات النفوذ الكبير حتى نهاية عهد الإدارة المصرية فى دارفور (١٨٨٣م – ١٨٨٤م)، لكن فى عهد الدولة المهدية (١٨٨٥م – ١٨٩٨م) نزحت أعداد كبيرة منهم غربا متجهة إلى وادای، واستقروا بها، والمسيرية قسمان رئيسان: المسيرية الحمر: وهم الذين يقومون برعى الإبل، وينقسمون إلى العجايرة والفلايتة والمسيرية الزرق: وهم صاروا بقارة، وفريق منهم تحول إلى الزراعة فى شرقى نيالا، وينتشرون جنوبى جبل مرّة[١]. وكان الإنجليز يعتبرونهم جزءا منفصلا، وكانوا يسكنون شرق بحيرة كيلك أسفل جبال النوبة، وفى ثلاثينيات القرن العشرين ضمت أطراف قبيلة المسيرية الثلاثة تحت إدارة واحدة، وقد أعطى هذا التوحيد مزايا اقتصادية مهمة لأنه أعطى المسيرية الزرق حرية الرعى لحيواناتهم بشكل أوسع مما كان فى الماضى، وبشكل أكثر مما كانت تسمح به حدود قبيلتهم[٢].

ويتركز المسيرية فى كردفان فى الغرب حيث ينتشر المسيرية الزرق حول الجبال، وفى الجنوب المسيرية الحمر الذين يتمركزون حول مدينة المجلد وبحيرة كيلك فى فصل الصيف، وفى نهاية الخريف يتجهون جنوبا إلى المراعى الخضراء فى بحر العرب حيث تكثر المياه والحشائش فى فصل الجفاف ويختلط رعاة الماشية على النهر مع عناصر الدينكا النيلية[٣].

وقد هاجر المسيرية الذين يرجع أصلهم إلى عرب جهينة من الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب وشمال إفريقيا وعبروا الصحراء الكبرى إلى حوض بحيرة تشاد واستمروا فى هجرتهم شرقا حتى وصلوا إلى مناطق المجلد بين عامى ١٧٦٥م – ١٧٧٠م، كما أن هناك فئة من المسيرية دخلوا عن طريق النيل حتى وادى هور ووادى الملك، وبعضهم سار مع النيل الأبيض حتى جبل عرشكول ثم اتجه غربا ليستقروا فى شرق كردفان[٤].

والمسيرية لا يتميزون بكثرة أعدادهم ولكنهم أثرياء، حيث يمتلكون أعدادا كبيرة من الأبقار، ومساحات كبيرة من الأراضى الزراعية كذلك حيث ينتجون كميات كبيرة من

(١) وسام أحمد طه منصور ، المرجع السابق ، ص ٢٥.

(٢) جيمس روبرتسون، السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى فجر الاستقلال، ترجمة مصطفى عابدين الخانجى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٦م، ص ٩٢.

(٣) نفسه، ص ٧٧، ٧٨.

(٤) ابن عمر عمر عبيد الله، المرجع السابق.

الحبوب ويبيعونها فى أسـواق الأبيض والنهود وخلال فصل الجفاف يذهبون إلى عدد من الأماكن التى تتوفر فيها المياه السطحية فى غرب جبال النوبة[١].

الهبانية: من أشـهر قبائل البقارة فى بالسـودان وينتشرون فى كردفان ودارفور، ففى بادية كردفان ينتشـرون بـين الحوازمة والجميع، وأهم مراكزهم شـركيلة، ومنهم الأدلاء لجبال النوبة وهم أعرف العرب بطريق تلك الجبال[٢].

وتقع دار الهبانية فى دارفور فى الجنوب ويحدهم الرزيقات شـرقا، والتعايشـة غربا، والمسـاليت والبرقد شمالا، والدينكا جنوبا[٣]، وهم أقل بداوة عن غيرهم من قبائل البقارة، والهبانية يعملون أساسا فى تربية الأبقار، لذا فهم يرتحلون جنوبا فى فصل الصيف، وفى فصل الخريف يتجهون إلى الشـمال هربا بقطعانهم من المستنقعات والذباب. ويعد الهبانية من أقل البقارة حركة، إذ إن البعض منهم قد استقر واعتمد على الزراعة، وجمع الصمغ. وبلدة الكلكلة (برام الحالية) هى حاضرة دار الهبانية وهى تقع فى جنوبى دارفور[٤].

تنقسـم قبيلة الهبانية العربية فى جنوب درفور إلى فرعين كبيرين هما السوط والطارة، أما السوط فينقسمون إلى فرعان هما الريافة والشبول[٥]، وذكرهم التونسى باسم الحبانية[٦]، ويقول عنهم القلقشـندى أنهم بطن من بطون جذام الكبرى القحطانية، كما لهم أصول فى قبيلتى لخم وثعلبة من طىء، اللذين عاشا متلازمين مما أدى لامتزاجهما بالمصاهرة[٧]، وظل اسم الحبانية معروفا فى السودان حتى نهاية القرن الثامن عشر، إلى أن تغير إلى الهبانية، ويمكن أن نعتبر ذلك تأثير اللهجات الإفريقية التى اعتادت نطق الحاء هاء[٨].

---

(1) Llotd, W., Op. Cit., pp. 260 – 261.

(٢) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الجزء الثالث، دمشق ١٩٤٩م، ص ١٢٠٨.

(3) MacMichael, Op. Cit., Vol. I, P. 287.

(٤) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٥) أحمد عبد الله آدم، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٦) محمد بن عمر التونسى، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٧) القلقشـندى، أحمد بن عبد الله، نهاية الأرب فى معرفة أنسـاب العرب، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٢٧، ٢٠٩، ٣٣٤، ٣٨١.

(٨) سبيل آدم يعقوب، المرجع السابق، ص ٨٧.

والهبانية قوم أذكياء يميلون إلى الدبلوماسية أكثر من القتال وأساليبهم تدل على ذلك فهم يميلون إلى الزراعة بجانب تربية الماشية وهى الأهم عندهم، والهبانية لا يخوضون حربا قبلية إلا مضطرين[1]. ولذا لم يسجل لهم تاريخ دارفور حربا تذكر مع سلاطين الفور، ولكن لم يخل الأمر من ممارسة بعض سلاطين الفور الضغط عليهم لدفع المزيد من الضرائب فكانوا يهربون إلى بنى عمومتهم فى كردفان. وتتنافس بطون الهبانية منافسة شديدة حتى تتولى أقواها الزعامة والقيادة ومن أول وأشهر زعمائهم شميس ولد أبو سعد الذى تمكن من توحيد بطون الهبانية تحت زعامته إلى أن توفى ١٨٨٢م[2].

وبين إقليمى دارفور وكردفان تعيش **قبيلة المعاليا**، وهم من البقارة العرب، ودار المعاليا ملاصقة لدار الرزيقات، وقد نشبت بين القبيلتين الكثير من النزاعات[3].

أما قبائل البقارة فى دارفور فتنحدر منها قبائل «الرزيقات، بنى هلبة، التعايشة، وغيرها، إلى جانب قبيلة الهبانية المنتشرة أيضا فى كردفان».

قبيلة الرزيقات: وتعد من أشهر وأغنى وأقوى قبائل البقارة، وقد ذكر التونسى أن الرزيقات كان لهم أعداد هائلة من الماشية حتى إن الداخل إلى مساكنهم يجد بركا من اللبن الذى استخلص منه الزبدة[4]. ويحد دار الرزيقات من الشرق قبائل الحمر والمعاليا ومن الغرب قبيلة الهبانية، ومن الشمال قبائل البيقو والداجو والطوايشة ومن الجنوب قبائل الدنكا، وهم يشغلون منطقة مساحتها ٣٢ ألف كيلومتر مربع فى جنوبى شرق دارفور، وينقسمون إلى ثلاثة بطون رئيسة الماهرية والمحاميد والنوايبة ولا يزال بعض الرزيقات يسكنون شمالى دارفور، وهؤلاء يعرفون بالرزيقات الشمالية، ولم يتخلوا بعد عن رعى الإبل كما كان أسلافهم، خاصة أنهم لم ينزحوا إلى جنوبى دارفور، فى حين أصبح رزيقات جنوب دارفور بقارة بعد تخليهم عن رعى الإبل[5]، وقد اختلطت دماء الرزيقات فى جنوب دارفور بدماء زنجية وهو ما غير من سحنتهم، غير أن ذلك لم يغير من سلوكها ولسانها العربى[6].

---

(١) أحمد عبد الله آدم، المرجع السابق، ص ٩٠.

(٢) وسام أحمد طه، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) نفسه، ص ٣٢.

(٤) محمد بن عمر التونسى، المرجع السابق، ص ٨٢.

(5) MacMichael, H. A., Op. Cit., P. 291.

(٦) أحمد عبدالله آدم، المرجع السابق، ص ٨٤.

ولـدى الرزيقات الشـمالية أصول وفروع بـين رزيقات جنوبى دارفـور «البقارة» وعادة ما تلتقـى هاتـان المجموعتان كل عام فى فصـل الخريف عندما ينـزح البقارة إلى شمالى دارفور، وكانت قبيلة الرزيقات الشـمالية تنتقل فى فصل الصيف نحو الجنوب، ويعودون مع هطول الأمطار، ولكنهم فى السـنوات الأخيرة انحـدروا جنوبا حتى نيالا وعدَّ الغنم، ثم يرحلون إلى الشمال عندما تزدهر مراع الجزو فى شمال كتم. والرزيقات الأبالة يتركزون حاليا فى كبكابية غربى الفاشر، وبعضهم لحق بفروع القبيلة فى جنوبى دارفور، والبعض الآخر حول الجنينة[1].

وقد اكتسب الرزيقات مهارة حربية فائقة ساعدت على إبراز دورهم فى مراحل مختلفة من تاريخ المنطقة، فقد كان لهم دور كبير فى مساعدة السلطان سليمان صولونج (١٦٣٩م – ١٦٧٠م) فـى توحيد أرض دارفور، وإخضاع القبائل والسـلطنات تحـت راية موحدة[2]. وخـلال فترة حكم سـلاطين الفور، حاول السـلطان تـيراب (١٧٥٢م – ١٧٨٧م) إخضاع الرزيقات، لكنه لم يتمكن منهم لانسحابهم إلى الجنوب، وتكررت محاولات سلاطين الفور خلال عهد السلطان محمد الفضل (١٨٠٣م – ١٨٣٨م)، وأيضا خلال عهد السلطان محمد حسين (١٨٣٨م – ١٨٧٣م).

كما تجلت مهاراتهم الحربية بصورة كبيرة أثناء الحرب التى شـنها عليهم الزبير باشا فـى يوليو عام ١٨٧٣م لإخضاعهم بعد أن نقضوا عهدهم معه لتأمين التجارة من دارفور إلى شـكا بكردفان، حيث كانوا يقومون بالهجوم المفاجئ على قواته ثم الانسحاب سريعا وهو ما أربك الزبير لفترة طويلة حتى تمكن من معرفة المكان الذى يلجئون عليه فكمن لهم عند شاطئ بحر الغزال حيث كانوا يهربون إليه طلبا للماء وتمكن من هزيمتهم[3].

إلى جانـب ذلك كان لقبيلة الرزيقات دور كبير فى دعم الثورة المهدية وزعزعة سـيطرة الإدارة المصرية، إلا إنهم سرعان ما انقلبوا على المهدية فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى (١٨٨٥م – ١٨٩٨م)، خاصة لإعراضهم عن الهجرة إلى أم درمان. وبعد انهيار الدولة المهدية

(١) عادل عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٢) نعوم شقير، المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣) عز الدين إسماعيل، الزبير باشـا ودوره فى السـودان فى عصر الحكم المصرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٩٢.

استمرت صراعاتهم مع السلطة فى دارفور فى عهد السلطان على دينار (١٨٩٨م – ١٩١٦م) حتى إنه فشل فى جباية الضرائب منهم على الرغم من توجيهه الحملات ضدهم[١].

قبيلة بنى هلبة: تعد قبيلة بنى هلبة من أهم قبائل البقارة فى جنوبى دارفور، وكانت فى عهد الإدارة المصرية (١٨٧٤م – ١٨٨٤م) من أغنى وأقوى القبائل، وتمتد دار بنى هلبة بين دائرتى عرض ١١° – ١٢٫٣٠° شمالا، وجنوب منطقة جبل مرّة، ويحدها من الشمال قبيلتا الفور والداجو ومن الجنوب دار التعايشة، ومن الشرق دار الفلاتة وقبيلة الفور جَنَاح آدم رجال ومن الغرب دار سلا[٢]. ودار بنى هلبة ليست شاسعة المساحة لكنها وافرة المياه والعشب، لدرجة أنها تعد أوفر أراض البقارة ماءا وعشبا[٣].

وقد هاجرت بنو هلبة فى الهجرة العربية الأولى إلى دارفور فى القرن السابع عشر وقال عنها سلاطين فى عهده أنها قبيلة قوية تمتلك ثروة عظيمة من الماشية بجانب قوة حربية يخشى بأسها فهم ليسوا من بطون جهينة كجيرانهم التعايشة والهبانية والرزيقات والمسيرية الحمر والحوازمة[٤].

وقبيلة بنى هلبة ثلاثة بطون رئيسة هلبة بعجة، هلبة سويد، هلبة مالك[٥]، كما تنحدر من هلبة سويد قبائل منها العطويون، الجابريون، الحميديون، وغيرهم، وقد ورد ذكر بنى هلبه فى كتاب التونسى تحت اسم بنى حلبة[٦] فقد أبدل حرف الهاء محل الحاء تأثرا باللهجات المحلية فأضحى اسمهم بنى هلبة.

وبلدة عدَّ الغنم (عدَّ الفرسان الحالية) هى حاضرة دار بنى هلبة لأولئك الذين يتمركزون جنوب منطقة جبل مرّة، كما تقيم جماعة منهم شرق جبل مرّة، وتعيش جماعة أخرى فى جنوبى جبل حريز، ولعل هذا الجوار مع الفور هو ما عرضهم لكثير من الصراعات مع سلاطين الفور خاصة مع ما تتميز به بنو هلبة من نزعة عسكرية وميل إلى الاعتزاز بالنفس

(١) وسام أحمد طه، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) نفسه، ص ٢٢.

(3) MacMichael, H.A., Op. Cit., P. 291.

(٤) أحمد عبد الله آدم، المرجع السابق، ص١٠٠، ١٠١.

(٥) القلقشندى، المرجع السابق، ص ٣٨٨.

(٦) التونسى، المرجع السابق، ص ١٣٩.

ورفض الخضوع أو القبول بالسيطرة، فتلقت بنو هلبه جانبا كبيرا من حملات سلاطين الفور ضد البقارة، لمحاولة إخضاعهم والسيطرة عليهم، وجمع المزيد من الضرائب لتلبية احتياجات السلطنة، وللحد من ثرواتهم التى تميزت بأعدادٍ ضخمة من قطعان الأبقار والخيل والضأن مما اضطرهم إلى الفرار فى أعداد غفيرة إلى دار الرزيقات – والحمر[١].

وقبيلة بنى هلبة فى دارفور قسمان رئيسان: هما أولاد جابر وأولاد جبارة. وأهم بطون أولاد جبارة «أولاد حروز، أولاد علوان، أولاد موسى، أولاد هضيلة». وأهم بطون أولاد جابر «أولاد جمعان، أولاد على، أولاد غياث، أولاد لبيد»[٢]. ونشاطهم الرئيسى هو تربية الأبقار، ولذا فهم يرتحلون جنوبا فى فصل الصيف، وفى الخريف يتجهون إلى الشمال هربا بقطعانهم من المستنقعات والذباب، كما يقومون بتربية الإبل والأغنام وزراعة بعض المحاصيل الغذائية كالدخن والأذرة . وبنى هلبة يمرون فى ترحالهم بمناطق عديدة يختلطون فيها بقبائل كثيرة، مثل الفور، الداجو، القمر، التعايشة، وهذا جعلهم يختلطون بقبائل كثيرة برباط من المصاهرة[٣].

وخلال فترة الدولة المهدية، رفض بنو هلبة فكرة الهجرة التى دعاهم إليها الخليفة عبد الله التعايشى وكان ذلك يزعجهم فهم لا يتخيلون أن يفارقوا دارهم ذات الأودية الخضراء إلى بلد يعيش على النيل ويبتعدون عن حياة الترحال، فكان خبر الهجرة كابوسا على قبائل البقارة[٤].

قبيلة التعايشة: تقع دار التعايشة فى جنوبى غرب دارفور، بين دائرتى عرض ١٠° – ١١° شمالا، وتحدها دار بنى هلبه شمالا وبحر الغزال جنوبا، ودار الهبانية شرقا، وجمهوريتا تشاد وأفريقيا الوسطى غرباً، وحاضرة التعايشة هى رهيد البردى[٥]، والتعايشة اشتهروا كسائر البقارة بالشجاعة والفروسية، وينتسب التعايشة إلى قبيلة جهينة العربية، كما ادعوا الانتساب إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى – صلى الله عليه وسلم[٦] –، كما

(1) MacMichael, H. A., Op. Cit., P. 292.

(٢) عادل عبد الرحمن محمود، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٣) وسام أحمد طه منصور، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤) أحمد عبد الله آدم ، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٥) يوسف فضل حسن، مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠ – ١٨٢١، ص ٨٠.

(٦) نفسه، ص ٨١.

أن هناك رواية تُرجع نسب التعايشة إلى الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه[1] – إلا أن الراجح أن التعايشة ينتسبون إلى القبائل العربية التى نزحت إلى دارفور بما يماثل تاريخ وطرق دخول قبائل البقارة الأخرى[2].

وتمارس قبيلة التعايشة رعى الماشية، ولهم ثروة طائلة من الأبقار، كما أن هناك جماعة منهم تمارس الزراعة، كما أن هناك جماعات أخرى تجمع بين النشاطين، واعتاد التعايشة التحرك بقطعانهم فى الخريف نحو الشمال حتى يتجاوزوا نيالا، وفى الخريف يتجهون إلى الجنوب الغربى وصولا إلى حدود إفريقيا الوسطى، وهذا التحرك تمليه ضرورة البحث عن الماء والعشب، واعتاد التعايشة الدخول إلى إفريقيا الوسطى وتشاد فى فصل الصيف[3].

وقد شاركت قبيلة التعايشة مشاركة فعَّالة فى الثورة المهدية، فالخليفة عبد الله التعايشى (١٨٨٥م – ١٨٩٨م) كان الساعد الأيمن لمحمد أحمد المهدى، الذى ميزه وعينه نائبا له ليس فقط لأنه كان على رأس الفئة الأولى التى أمنت بالمهدية، بل إنه كان يمثل قبائل الغرب التى قامت على أكتافها الحركة المهدية[4]. وقد تولى حكم الدولة المهدية بعد وفاة المهدى ١٨٨٥م، كما تبوأ كثير من رجال التعايشة بعضا من أكبر وأهم المناصب فى الدولة والجيش مثل يونس الدكيم، محمود ود أحمد، الأمير يعقوب، الختيم موسى، عثمان آدم وغيرهم. كما شكل رجالها العمود الفقرى للجيش. وتعرضت القبيلة إبان عهد الخليفة عبد الله التعايشى للهجرة الجبرية إلى أم درمان لمؤازرة الخليفة[5]، هاجر عدد غير قليل من قبيلة التعايشة إلى أم درمان بعد تولى الخليفة عبد الله التعايشى قيادة المهدية فى عام ١٨٨٥م، مثلما فعل غيرهم من القبائل الأخرى حيث تركوا خلفهم قطعانهم ترعى نفسها[6]. وبعد هزيمة الخليفة ومصرعه فى أم دبيكرات ١٨٩٩م انتشر التعايشة فى عدة مناطق أخرى غير دارفور، مثل الرماش على النيل الأزرق قرب كوستى، سنّار، وبقى جزء

(١) عادل عبد الرحمن محمود، المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) وسام أحمد طه، المرجع السابق، ص ٢٦.

(3) Cunnison, I., Baggara Arabs, P. 31.

(٤) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٥) موسى المبارك الحسن، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(6) Theobold, A. B., Op. Cit., p. 120.

فى أم درمان والخرطوم، بالإضافة لجزء فى الأبيض، كما عاد جزء آخر إلى دار التعايشة فى دارفور[1].

خامسا - ملامح من عادات وأنشطة البقارة:

تسببت الأوضاع التى أصبح عليها البقارة فى إيجاد نمط حياتى يجمع بين العادات القبلية العربية الموروثة وبين الظروف التى فرضتها عليها البيئة المحيطة بهم، فقد احتفظ البقارة بالسمات الرئيسية للقبائل فى المجتمع الرعوى فشيخ القبيلة هو الممثل للقبيلة، والقبيلة هى التى تختاره بمحض إرادتها بما فيه من الصفات الشخصية التى تؤهله للقيادة، وهو القيم على مصالح القبيلة وحقوقها وكيفية تنظيمها ويعاونه فى ذلك الأجاويد[2] الذين يقومون بدور مهم فى حياة البقارة فهم معنيون بتسوية الخلافات بين أفراد المجتمع على مختلف مستوياته فى إطار مؤسسة محلية دون اللجوء إلى السلطة، وذلك عن طريق التوسط بين المتخاصمين لحل خلافاتهم بالحسنى، والأجاويد هم أشخاص نالوا مراكز اجتماعية ذات قيم عالية نسبة لالتزامهم وتميزهم بالعقل ورجاحة الرأى والإلمام بالعادات، وعادة ما يكون الأجاويد من الفقهاء فى الدين أو من كبار السن فى القبيلة، وللمتخاصمين الحق فى رفض أو قبول الاحتكام للجودية، أو القبول بحكمها، وتنحصر مهامهم الجودية فى أنواع المشاكل مثل الخلافات بين الأشخاص داخل القبيلة، أو بين مجموعات داخل القبيلة مثل النزاعات العشائرية على الأرض والقتل وخلافه، أو الخلافات التى تنشأ بين قبيلة وأخرى وغالبا ما تكون على الموارد (الماء والكلأ) وفى هذه الحالة يكون الأجاويد من خارج أطراف النزاع وقد أوجدت طبيعة نشاط البقارة ضرورة كبرى لهذا النظام؛ إذ إن وجود نشاط الرعى والترحال شمالا وجنوبا إلى جانب المزارعين المستقرين ولد الكثير من المنازعات بينهم، إذ أنهم يمارسون هذه الحياة فى أرض مشتركة ومياه محدودة[3].

(١) وسام أحمد طه، المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث فى تاريخ السودان (الأراضى – العلماء – الخلافة – بربر – على الميرغنى)، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢م، ص ١٥.

(٣) يوسف خميس أبو رفاس، دور الجودية فى حل النزاعات فى السودان (نموذج دارفور)، معهد مبارك قسم الله للبحوث والتدريب: http: //www. mubarak – inst. org/ all_res. php

ومن أهم مسئوليات شيخ القبيلة تنظيم الرعى، وهو النشاط الاقتصادى الرئيسى للقبيلة، إذ يمثل العمود الفقرى للبقارة بجانب الصيد والزراعة كمهنتين ثانويتين يمارسونها أوقات استقرارهم المؤقت، ويرتبط الرعى بالترحال وتسمى مجموعاتهم بالمراحيل، والنشاط الاجتماعى والتزاوج لدى البقارة يتم تبعا لمواقيت المراحيل[1].

وقد تسببت حركة تبادل ومقايضة المنتجات الزراعية بين البقارة والقبائل الجنوبية خلال هجرتهم الشتوية فى مقابل استخدام ماشيتهم فى النقل والأغراض الأخرى فى عدم اعتماد البقارة على الزراعة حتى يتيسر لهم الترحال دون عوائق لارتباطهم برحلة الحيوان وعدم الاستقرار[2]. على الرغم من خصوبة الأرض فى دور البقارة، وإن كان هذا لم يمنع قيامهم أحيانا بزراعة بعض المحاصيل مثل الدخن الغذاء الرئيسى وبعض أنواع الذرة.

وحتى الصناعات اليدوية ارتبطت بتلك الرحلات، فهى تعتمد على النبات والحيوان، والمرأة هى التى تقوم بصناعة أدوات وزينة البيت من سعف وبروش وسراير حتى الأوانى، أما الرجال فمن الطريف أنهم يحتقرون بعض المهن ولا يمارسونها مثل الحدادة وحياكة الملابس «الترزى» الذى يسمونه «الجكاكى»، ويعتبر صيد الفيل من التقاليد الموروثة القديمة وارتبطت تجارة سن الفيل بالشهرة والربح، وبمرور الزمن تحولت الدوافع الاقتصادية إلى قيمة اجتماعية، فصائد الفيل فارس وذو مكانة مرموقة فى القبيلة وله مكانة مميزة عند

(١) تتسم حركة البقارة المستمرة شمالا وجنوبا بقدر كبير من التنظيم فرضته عليهم طبيعة المنطقة فلكل قبيلة مرحال متفق عليه بين القبائل، وهو خط سير من منطقة إلى أخرى بحثا عن الماء والكلأ أو العشب، وهو حيز مكانى وإدارى واجتماعى معلوم للجميع له حدود معينة من حيث الطول والعرض، وسمى بالمرحال لأنه يربط بين نقطتين عند رحيل القوم من مكان لآخر، وتسمى المسافة بين هاتين النقطتين بالمرحلة، وللمرحال قواعد وأعراف وقوانين يحترمونها ويحافظون عليها ويتمسكون بها، ومن أهم تلك القواعد أن يكون للقبيلة التى شقته من بداية المشوار حقوق تاريخية فى ملكيته ويسمى المرحال أحيانا بأسماء القبائل، وفى الوقت ذاته يعتبر استخدام المرحال حق مشروع للجميع، فلا يسمح بالتعدى عليه وإغلاقه بغرض الزراعة، مع التزام الرحل بعدم التعدى على حواكر المزارعين التى تجاور مسارتهم وهناك قوانين شعبية فى هذا الخصوص مثل الحكم بالغرامة المالية على صاحب الأغنام التى تعدت على مزرعة، وتقدر الغرامة عن طريق لجنة يتم اختيارها لذلك ويقبل بحكمها الطرفين. ولدى البقارة آلة موسيقية تسمى النقارة وهى تتكون من قسمين الأكبر يسمى النقارة الأم والقسم الأصغر، أنها تستعمل عند المسارات (المراحيل) ولكل مجموعة ضرب معين بالنقارة يميزها عن غيرها من القبائل فمثلا نقارة التعايشة تختلف تماما عن نقارة الحوازمة فى الإيقاع وهكذا، وعندما تحط الضعينة رحالها يقوم مسئول الفريق بضرب النقارة للاستدلال على مكان الفريق، كما أنها تستخدم فى حالة فقد الماشية أو الإنسان وغيرها، كما تستخدم النقارة كوسيلة اتصال فى حالات الفرح والفزع والحروب.

(2) Thomas, F. C., The Juhaina Arabs of Chad, in: Middle East Journal, Vol. 13, No. 2 (Spring 1959), p. 148.

شـعراء القبيلة، وصيد الفيل تـوارث صيادوه عادات وتقاليد ارتبطـت بالمهنة من تجهيز الرحلة وخلافه، ويتناوب على صيد الفيل خمسة من الفرسان لكل منهم مهمة محددة[1].

وقد جعلت جذورهم العربية منهم أهل فروسـية، فبجانب تربية الأبقار للخيل عندهم مكانـة خاصة وأثيرة فهو للأفـراح والاحتفالات وللصيد وللحروب أيضا، ويتفوق الرزيقات كأكثـر البقـارة امتلاكا للماشـية فى هذا المجـال، ولا يرون للخيل بديـلا كدابة مرافقة للأبقار التى يعتمدون عليها بصورة شـبه كاملة فى اقتصادهم وفى معاشـهم، فهو وسـيلة التنقـل وآلة الحـرب ومضرب وجاهة اجتماعية ويعتبر فرسـان الرزيقـات أن أهل المدن يهينـون الخيول وذلك لاسـتعمالهم إياها فى نقل البضائع، وقـد أوجد الاهتمام بالخيول العديد من الوظائف والمهن تعتمد عليها أسـر كثيرة ومنها ترويض الخيول، واللبادة الذين يصنعون اللبد، والسراجة، والجلادة الذين يصنعون زينة الخيول من جلود الماعز والغزلان، والحدادة لصناعة الدلايات التى يستخدمها الفرسان فى ركوب الخيل، والعلافة، والبياطرة الشعبيون ويطلق عليهم الحكماء، واللجامة لصناعة لجام الخيول وغيرها[2].

وقـد بلغت مهـارة البقارة فى اسـتخدام الخيول فى الصيد حـدا بعيدا خاصة بين القبائـل المجاورة للقبائل الإفريقية فى منطقة النيل الأبيـض وبحر الغزال[3]، مثل بنو سليم والحمر فى بحر الغزال، فتميز بنو سليم بأنهم صيادون عظماء سواء فى صيد الفيلة أو وحيـد القرن من على ظهر الخيول[4]، وفى الأشـجار الملتفـة، أو على الأراضى غير المستوية والمشققة[5].

---

(١) زينب عبد الله محمد، الزى والزينة عند قبائل البقارة بالسودان، الطبعة الأولى، الخرطوم ٢٠٠٨، ص ٢١٦.

(٢) الدلنج فرح أميدة، خيول البقارة مفخرة اجتماعية ومؤسسات تعيل آلاف الأسر، جريدة الصحافة (السودانية)، العدد ٥٢٩٧، بتاريخ ١٨/ ٣/ ٢٠٠٨.

(٣) إن كان البقارة قد عملوا لفترة طويلة فى عمليات صيد العبيد من القبائل الإفريقية فى جنوب السـودان، فقد كان لهم دور أيضا فى القضاء على الجلابة فى أراضيهم، وذلك عندما أمرهم غوردون بذلك، فقاموا بالقبض على هؤلاء التجار الذين تعايشـوا بينهم لسـنوات واسـتولوا على ممتلكاتهم. سلاطين باشا، السـيف والنار فى السودان، القاهرة ١٩٣٠م، ص ٨.

(4) Stanton, E. A., The Peoples of Anglo – Egyptian Sudan, in: Journal of the Royal African Society, Vol. 2, No. 6, Jan. 1903, p. 126 – 126.

(٥) جيمس روبرتسون، السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى فجر الاستقلال، ترجمة مصطفى عابدين الخانجى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٦م، ص ٩٢.

وقد أدى ذلك الولع بالخيول والفروسية إلى اكتساب البقارة مهارات حربية ميزتهم عن غيرهم من أهل السودان، وساعدتهم على تقوية نزوعهم إلى الاستقلال السياسى وهو ما دفع السلطات إلى استخدام أقصى درجات العنف للسيطرة عليهم[١]. وبرزت قوتهم من خلال دعم غالبية البقارة للثورة المهدية، وبعد موت المهدى بايع البقارة الخليفة عبد الله التعايشى من قبيلة التعايشة، والذى مثل لهم البطل الذى قادهم من نصر إلى آخر ضد الحكومة، وإن كانت الخلافات التى نشأت فى تلك الفترة بين أهل النيل وبين البقارة لاعتقاد كل منهم بأحقيته فى خلافة المهدى قد أصبحت أهم عناصر الضعف فى جسم الدولة المهدية[٢]. وقد نقل إليسيف M. Eliseieff – أحد الرحالة الروس الذين زاروا السودان وقت الثورة المهدية – أن من بين قوات الخليفة عبد الله التعايشى أكثر من ٤٠ ألف مقاتل من عرب البقارة[٣].

وقد تعرض البقارة خلال مراحل تاريخية عديدة لمؤثرات خارجية أثرت عليهم وعلى أوضاعهم سواء بالسلب أو بالإيجاب، فخلال أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر وأوائل التسعينيات تعرض السودان لأسوء وباء طاعون بقرى، حيث تسبب فى هلاك عدد كبير من الثروة الحيوانية، كما تسببت زيادة كميات الأسلحة الحديثة الموجودة فى السودان فى القضاء على أعداد كبيرة من الأبقار، إلى جانب الآثار السلبية التى ترتبت على الصراع وترحيل جانب من قبائل البقارة إلى أم درمان أثناء فترة الدولة المهدية، غير أنهم عادوا بعد سقوط الدولة المهدية إلى موطنهم، وأعادوا تنظيم قطعانهم وتنميتها. بينما أدت عوامل الاستقرار السياسى خلال فترة الحكم الثنائى والتى شهدت زيادة استخدام وسائل النقل البرى كما سمحت للكوادر الطبية بتغطية مساحات واسعة إلى تراكم سريع فى أعداد الماشية، وكانت الحرب العالمية الثانية قد تسببت فى تحقيق طفرة كبيرة للبقارة إذ حصلوا لأول مرة على أموال نقدية فى مقابل حيواناتهم[٤].

---

(1) De Wal, A. Who Are the Darfurians? Arab and African identities, Violence and external Engagement, in: African Affairs, Vol. 415, p. 184.

(٢) السنى بانقا، أضواء على النظام القبلى والإدارة فى السودان، الخرطوم د. ت، ص ٢١، ٢٢.

(3) New York Times, Apr. 3, 1896, p. 5.

(4) Wilson, R. T., Temporal Changes in Livestock numbers and patterns of transhumance in southern Darfur, Sudan, in: the Journal of Developing Areas, Vol. 11, No. 4 (Jul. 1977), p. 498.

أما عن علاقاتهم بما حولهم من أهل السـودان من قبائل النوبة أو القبائل الجنوبية، فقـد تنوعت بين التعاون والتصادم فى بعض الأحيان، أما التعاون فأوجده تبادل المصالح والبضائـع بـين الطرفين، وفى بعـض الأحيان حماية قبائل البقارة بما اشـتهرت به من مقدرة حربية لبعض القبائل الأخرى مثلما كان يحدث بين الحوازمة وقبائل جبال النوبة. أمـا التصادم، فكان يحـدث فى مناطق التماس، وهى تلك المناطق ذات المرعى المشـترك وقصـد بها الخطوط الفاصلة بين جنوب السـودان وشماله، وهـى مناطق التقاء بين عرب البقارة وقبائل الجنوب الرعويتين. ويمتد شريط أراضى التماس من أقصى حدود دارفور مع الجنوب غربا إلى أقصى حدود جنوب كردفان شـرقا. وتعتبر تلك المناطق أراضى السـافانا الغنية ذات الأعشـاب الطويلة. وبعد توقف الأمطار تقوم القبائل الجنوبية بإشعال النيران فى الأعشـاب لفتح المناطـق الوعرة التى تعتبر أوكارا للحيوانات المفترسـة وكذلك لإعادة اخضرار المراعى بأعشـاب جديدة ذات قيمة غذائية عالية فى فترة الصيف، وتسمى تلك المناطـق عند البقارة «الرقاب» وتسـمى عند أهل القبائـل الإفريقية «التوج». وحينما تصل قبائل البقارة التى تقضى فترة الخريف فى أراضى القوز – إلى الجنوب تكون الأعشـاب الجديـدة قد ازدهرت، من ثـم تحدث نزاعات بين القبائل الإفريقيـة والبقارة فى بعض الأحيان بحجة أن القبائل الجنوبية أحق بالمرعى لأنها هى التى أحرقت الأعشاب القديمة عندما كان البقارة بأرض القوز[1].

(١) تتزايـد مخاطـر النزاعات بين قبائل البقارة والقبائل الجنوبية خاصة مع احتمال انفصال جنوب السـودان عن الدولة الأم، وهو ما يعنى أن تلك المراعى سوف تصبح ضمن أراضى الجنوب، وهو يحيط مستقبل البقارة بالخطر خاصة مع إهمال اتفاقية نيفاشـا الموقعة بين الحكومة السـودانية ومتمردى الجنوب لتلك المسـألة، وبالتالى إما أن تصبح تلك الحدود مثار حروب مسـتمرة فى المسـتقبل، أو أن يتم حصر البقارة داخل حدود جنوبى دارفور وكردفان وبالتالى الضغط علـى المـوارد الطبيعة فى تلـك المناطق والتى لا تتحمل تركيز البقارة بثرواتهم الحيوانية على مواردها وبالتالى تسـتنزف موارد تلك المياه من المياه والغطاء الأخضر وبالتالى تتآكل ثروة البقارة الحيوانية. بريمة محمد آدم، قبائل البقارة والمأزق: حروب التماس فجوة أمنية فى جدار نيفاشا، Http: //www. sudaneseonline. com/ cgi – bin/ 2bb. cgi?، تاريخ الدخول: ٦ مارس ٢٠١٠م.

خاتمة:

يتضح من خلال هذه الدراسة أن القبائل العربية التى عرفت باسم قبائل البقارة فى السودان واستقرت فى المنطقة المعروفة بحزام البقارة وصلت إلى هذه المنطقة عبر عدة طرق أهمها وأكثرها تأثيرا هو الطريق من مصر بمحاذاة نهر النيل، وأن قبائل البقارة اضطرت للوصول إلى هذا المكان بسبب العديد من الأحداث السياسية والاقتصادية.

وفى هذا المكان اضطر البقارة إلى تغيير نشاطهم الرئيسى من رعى الإبل إلى رعى الأبقار بسبب العديد من العوامل البيئية بعد مرحلة انتقالية صعبة فرضت عليهم القيام بعمليات قنص العبيد وصيد الحيوانات مستخدمين مهاراتهم الفطرية فى ركوب الخيل وهو ما مثل صدمة لأهل تلك المناطق من القبائل الإفريقية التى لم تعتاد رؤية الفرسان على ظهر الخيول.

كما يتضح من خلال هذه الدراسة أن قبائل البقارة تتفاوت فى قوتها وثروتها من خلال انتشارها فى جنوبى إقليمى كردفان ودارفور، وأن هذه القبائل كان لديها من نزعة الاستقلال السياسى ما جعلها فى مراحل تاريخية مختلفة فى صراع مع القوى الحاكمة، ساعدها على ذلك مهاراتهم الحربية التى ثقلت على مدار أجيال متعاقبة، وهو ما جعلهم من أهم العناصر المؤثرة فى تاريخ السودان.

كما أوضحت الدراسة أن البقارة على الرغم من الظروف التى غيرت كثيرا من أنماط حياتهم المعيشية، فإنهم احتفظوا بالعادات العربية الأصيلة، فلم يغيروا إلا ما يناسب بيئتهم الجديدة فى تلك المنطقة.

وأخيرا تبقى الإشارة إلى خطورة أوضاع البقارة فى المستقبل القريب خاصة مع احتمال انفصال جنوب السودان نظرا لكون قبائل البقارة تعيش فى المناطق المعروفة بنقاط التماس بين جنوب السودان وشماله، وهو ما يفرض على هذه القبائل التداخل مع الجنوب بما يمثله من مصدر للماء والعشب، ويزيد من هذه المخاطر أن الاتفاقيات التى أبرمت لوقف الحرب الأهلية بين الجنوب والشمال لم تشر فى أى من نقاطها إلى حقوق هذه القبائل فى الوصول إلى مراعيها، وهو ما يعنى أنه فى حالة انفصال الجنوب، فسيكون هناك احتمالان لمستقبل هذه القبائل بما تمثله من ثروة حيوانية كبيرة للسودان، الاحتمال الأول: وهو أن تتحول نقاط التماس إلى نقاط احتكاك بين البقارة وقبائل الجنوب، أما الاحتمال الثانى: وهو أن تجبر حكومة الشمال على حصر قبائل البقارة داخل حدود الشمال، وهو ما يعنى

أن اعتماد البقارة سـوف يصبح كاملا على موارد كردفان ودارفور الطبيعية وهو ما سـيؤدى إلى تـآكل هذه الموارد فى تلك المناطق، كما سـتؤدى حتما لتآكل ثـروة البقارة الحيوانية، ولا بديـل لهـذه الاحتمالات إلا بالتوصـل لاتفاقيات تضمن حقوق البقـارة التاريخية فى الوصول إلى مراعيهم، وهو ما يتطلب مسـاندة الدول العربية وعلى رأسـها مصر فى تحرك جماعى لمساندة السودان ليس فقط لمواجهة المخاطر التى تتعلق بمستقبل البقارة بل بالعديد والعديد من المشاكل الموجودة والتى من المنتظر أن تظهر فى المستقبل القريب.

❑❑❑